ابن زيدون وأسباب سجنه

الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

ذكر الأستاذ جمال الدين الرمادى فى ثنايا مقاله عن الشاعر الرمادى بمجلة الثقافة العدد ٦٢٨ أن ابن زيدون أحب ولادة وسجن فى سبيلها . والحقيقة غير هذا والتاريخ يخالفه ، فلم يسجن ابن زيدون لأنه أحب ولادة وكان هذا السجن فى سبيلها ، لأن سيرته تبين غير ذلك . لم يكن ابن زيدون واحداً من عامة الناس ولا شاعراً كبقية الشعراء ، بل كان فتى قرطبة المدلل وبطلها المرجى وشاعرها الذى لا يجارى ، ووزيرها المتصرف. ولم يكن كل هذا فحسب، فقد كان سياسيا شارك فى المسائل العامة، وخاض غمار الثورة التى ذهبت بدولة بنى أمية وأتت بغيرهم . وكان من أشياع أبى الحزم ابن جهور بن محمد ، فمازال يعمل على تأييد ملكه حتى ثبتت أركانه وارتفع بنيانه ، فاصطفاه ابن جهور لنفسه وأشاد بفضله ، وأسند إليه الوزارة جزاء خدمته، وأناط به مهام الدولة، وكان ثقته فيه ينفذه إلى ملوك الطوائف سفيرا بينه وبينهم .. وكان أبو الوليد عبقريا مربع حركة الفكر ذرب اللسان جم الفكاهة ، وثاب النفس كثير الفخر بنفسه ، يرى أن الأندلس كلها لم تنجب له ندا ، فكان يتيه عجبا وخيلاء ، إذا تحدث افتخر بفضله، وربأ بنفسه أن يكون ألعوبة فى يد الحوادث، فاسمعه يقول وهو فى سجنه :

لا يهنئ الشامت الرتاح خاطره ... أنى معنى الأمانى ضائع الخطر

هل الرياح بنجم الأرض عاصفة

أم الكسوف لغير الشمس والقمر

إن طال فى السجن إبدائى فلا عجب

قد يودع الجفن حد الصارم الذكر

قد كنت أحسبنى والنجم فى قرن

ففيم أصبحت منحطا إلى القفر

ولقد كانت عبقرية ابن زيدون ومواهبه نقمة عليه ، فقد أورثته الغرور بالنفس والاعتداد بها ، فكان لا يقدر لرجله قبل الخطو موضعها (يرمى الكلمة لا يبالى أين رماها ويصدع بالرأى فى جرأة وافتراز) فقد كتب يوما إلى فتاة كان يحبها قبل ولادة وقبل توليه الوزارة (... أما ابن جهور فزق نفخته الكبرياء ، وصورة من نفاق ورياء ، يخدع الناس بلحيته الحمراء، ومسبحته السوداء . إنه رجل يثب عند الطمع ، ويخنق عند الفزع ، لو كان فى الجاهلية لكان هبل ، أو كان كوكبا لكان زحل ...)

وقد أوغر تقريب ابن جهور له ، صدور حساده ، فتربصوا به الدوائر ، وكانوا يعملون دائما على الإيقاع به ، ومن أشد أعدائه

والحق كل الحق أن غاية الإنسان فى حياته هى أن يصل إلى نور اليقين بعد ظلمات الشك ، فيتعرف على كنه الوجود الذى يعيش فيه ، ويتعرف على ما هيته ومصيره ، تعرفا من شأنه أن يلقى السكينة على قلبه . فهل استطاع العلم فى عصرنا هذا أن يفسر لنا ما هية الوجود أو الحياة تفسيرا ترتاح إليه قلوبنا ؟ والجواب على ذلك هو أن العلم وما يصطنعه أصحابه من مناهج تجريبية لم يستطع أن يكشف لنا إلى الآن عن حقيقة ما من هذه الحقائق التى لا سبيل إلى كشفها بطريق عقلى أو تجريبى ، ولا يزال عالم الروح بالنسبة إلينا مجهولا . ثم هناك أمر آخر أشد ما يكون غرابة ، وهو إنكار المنكرين على الصوفية لأذواقهم ومواجيدهم ومكاشفاتهم ، فهذا الإنكار لا يقوم على أساس ولا يستند على منطق سليم، فقد رد الصوفية على منكريهم أن اسلكوا سبيلنا وانهجوا نهجنا ولكم بعد ذلك أن تحكموا علينا، ولكن الحقيقة أن المنكرين أنكروا عليهم علومهم ، وقد غرقوا فى بحار المادة، وكبلوا بقيود الحسرة

وجماع القول فيما سبق هو أن اليقين كل اليقين فى الاتصال المباشر بالله عز وجل اتصالا من شأنه أن يبدد لنا ظلمات الشك بمعرفة كنه الوجود ، وما وراء هذا العالم المحسوس من عوالم أخرى هى من أمر الله سبحانه وتعالى ، وهذا لا يتم إلا إذا خلصت النفس من شوائب الحس ، وصفت وأشرقت فارتقت إلى عالم الروح ، وهناك تفيض عليها المعارف الإلهية والعلوم اللدنية ، فتنعم بحضرة الجمال . وتتمتع بلذة الوصال

أبو الوفا التفتازانى

الوزير ابن عبدوس الذى كان ينافسه فى حب ولادة ويخشى مزاحمته فى مهام الوزارة ، وكان ابن زيدون يعرف هذا . ولكن غروره جعله يستهين بعدوه . أخبرته ولادة يوما بعد أن خطبها ، أن ابن عبدوس يطاردها كما يطارد الصائد فريسته ، وأنها تريد أن ينقذها من ذلك الغدم (١) فاغتاظ ابن زيدون وكتب له : (... أما بعد أيها المصاب بعقله ، الموروط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر فى ذيل اغتراره . الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب ، على الشراب ، فوجودك عدم ، والاغتباط بك ندم ، والخيبة منك ظفر ، والجنة ممك سقر ، كيف رأيت لؤمك لكرمى كفاء ؟ وضعتك لشرفى وفاء ، وأنى جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها ، والطير إنما تقع على إلفها ، وهلا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان ، وشمرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان) ثم قال :

أثرت هزبر الشرى إذ ربض ... ونبهته إذ هدا فاغتمض
حذار حذار فإن الكريم ... إذا سيم خسفا أبى فامتعض
فإن سكوت الشجاع النهو ... س (٢) ليس بمانعه أن يعض
وأن الكواكب لا تستزل ... وأن القادير لا تعترض
أبا عامر أين ذاك الوفاء ... إذا الدهر وسنان والعيش غض ؟
أبن لى ؛ ألم أضطلع ناهضا ... بأعباء برك فيمن نهض ؟
لعمرى لفوقت سهم النضال ... وأرسلته لو أصبت الغرض
وغرك من عهد ولادة ... سراب تراءى وبرق ومض
هى الماء بأبى على قابض ... ويمنع زبدته من مخض

فأثارت هذه الأشياء ابن عبدوس فكان له بالمرصاد ، يرقب حركاته ويتبع تنقلاته ، ولا يكتفى بنقل ما يقع تحت يده ، بل يضيف الشىء الكثير من عنده

حدث أن أرسله ابن جهور إلى المظفر صاحب بطليوس فى شأن من شؤون الدولة ، فوجدها ابن عبدوس فرصة نادرة فبعث وراءه جاسوسا ، يرقب حركاته ويحصى عليه أعماله

وأكرمه المظفر وأحسن استقباله . ولما رأى ما يتمتع به من ذكاء وفطنة رغب أن يكون وزيره ، فعرض عليه الوزارة وألح عليه فى ذلك وأخذ يغريه بالجاه والمال . ولما كان ابن يدون لا يقدر المواقب ، فقد خاض فى أشياء تمس ابن جهور ، وكثيراً ما كان يسخر منه ، ولم يكن يعلم أن هناك من يحصى عليه القول ويرقبه عن كثب . قال مرة يمدح المظفر .

مليك إذا سابقته الملوك ... حوى الخصل أو ساهمته سهم
فأطولهم بالأيادى يدا ... وأثبتهم فى المعالى قدم
وأروع لا معتفى رفده ... يخيب ، ولا جاره يهتضم
ذلول الدمائة صعب الإباء ... ثقيف العزيم إذا ما اعتزم

وقال مرة أخرى :

أشف الورى فى النهى رتبة ... وأشهرهم فى المعالى مثل
وأحرى الأنام بأمر ونهى ... وأدرى الملوك بعقد وحل
غمام بظل وشمس تنير ... وبحر بفيض ، وسيف يسل
نسيم الحيا ضحوك السماح ... لطيف الحوار أريب الجدل
سواك إذا قلد الأمر جار ... وغيرك إن ملك الفيء غل

إلى آخر ما قال فى مدح أسبغ فيه على الرجل صفات العظمة ، بل وحصرها فيه ، ولم يكتف بذلك بل عرض بغيره من الأمراء الآخرين ومنهم سيد نعمته ابن جهور . وكان جاسوس ابن عبدوس لا يترك شاردة ولا واردة إلا قيدها ، فكان يكتب كل ما يتفوه به ابن زيدون فى مجلس المظفر وكل ما يقوله من الشعر ثم يلونه بما يشاء ويضيف إليه ما يعرف أنه يزيد من عظم الأمر الذى جاء من أجله . ويجزل له العطاء (أى الجاسوس)

وما أن وصلت هذه الأشياء إلى يد ابن عبدوس حتى تهلل وجهه بشرا ، ثم أضاف إليها ما شاء من أشياء يعرف أنها تزيد فى إيغار صدر ابن جهور على وزيره ، وقام بتبليغه بما حصل عليه من أخبار على خير وجه ، وكان ابن جهور (رجلا أذنا ، ينصت لكل نمام ويلقى السمع لكل واش) فامتلأ صدره حقدا وغلى مرجل غضبه ، وقال ويل له منى ! ماذا ترك لى إذا كان المظفر أشف الناس رأيا وأحزمهم بالنهى ، ومن سواه الذى إذا قلد الأمر جار والذى إذا ملك الفيء غل ، إن كان يقصدنى فلأمه الهبل

فلما عاد ابن زيدون من سفارته لحظ تغييرا كبيرا فى معاملة ابن جهور له وانصرافه عنه ، ورأى أن الابتسام الذى كان يلقاه

(١) رجل (فدم) أى غبى ثقيل
(٢) نهس ، بمعنى نهش ، ونهشته أخية أى لسعته

به تبدل عبوساً ، وأن الثقة أصبحت شكا ، وأن الأمر صار على خلاف ما كان ، ولم يشك أن الوشاة وعلى رأسهم ابن عبدوس قد نفثوا سمومهم فى صدر ابن جهور ، وقد فعلت هذه السموم فعلها فكتب إليه قصيدة يستعطفه فيها ويستخبره جلية الأمر ، ولكنه لم يستطع أن يغالب نفسه الكبيرة وغروره القتال فأظهر فيها إباؤه وشممه واستعلاء نفسه . ومنها :

مالى وللدنيا ؟ غررت من المنى ... فيها ببارقة السراب الخادع
ما إن أزال أروم شهدة عاسل ... حميت مجاجتها بإبرة لاسع
من مبلغ عنى البلاد إذا نبت ... أن لست للنفس الألوف ببائع
فليرغم الحظ المـــولى أنه ... ولى فلم أتبعه خطوة تابع
إن الغنى لهو القناعة لا الذى ... يشتف قطرة ماء وجه القانع

* * *

وكان ابن زيدون وثيق الصلة بأبى الوليـــد بن أبى الحزم ابن جهور ، وكان هذا يحبه ويصطفيه ، ويدافع عنه بما أوتى من جهد وقوة ، ولكن تصرفات ابن زيدون ، وفلتات لسانه كانت تذهب بكل ما يبذله أبو الوليد وتحطم كل ما يشيده . فبعد عودة ابن زيدون من مهمته استمر ابن عبدوس يرصد حركاته ويحصى أعماله ، وكانت عيونه لا تغفل عن ابن زيدون لحظة ، وكلما وقع شىء فى يد ابن عبدوس بعث به إلى ابن جهور ، ومن ذلك ما كتبه له :

(... أما بعد فقد أبلغنى الرجل الذى وكلت إليه مرافقة ابن زيدون ومراقبته عن بعد : أنه منذ حضر من بطليوس ، يتنقل من دار إلى دار والحيرة لا تفارقه ، ويزور أناسا لم يكن يزورهم من قبل ، وقد تردد فى الأسبوع المنصرم على دار راجح الصنهاجى وكان يودعه عند الباب كل مرة ، وسمعته فى إحدى المرات يقول له : (سيكون الأمر هينا والجو ملائما) ، وزاره منذ يومين ثابت الناقد ، وخرج من عنده متجهم الوجه يبدو عليه القلق والتفكير ، وكان بالأمس مع ابن زكوان عند ولادة وخرجا قبيل الفجر ، وكانا يتهامسان فى الطريق ويبدو عليهما الجد والاهتمام ...)

وردت هذه الرسالة بينما كان ابن جهور وابنه أبو الوليد فى مجلس لهما ، فلما قرأها ابن جهور دفع بها إلى ابنه وقال أسمعنى ما فيها . فلما انتهى أبو الوليـــد من قراءتها سكت ولم يتكلم ، فصاح أبوه قائلا

« أرأيت أبا الوليد كيف أن الرجل لا يخالط إلا المترددين المزعجين الذين لا يحجبهم عن الفتنة إلا العجز أو الخوف من أن يكونوا حطبا لنارها » فدافع أبو الوليد عن صاحبه دفاعا حارا ، حتى استطاع أن يغير رأى أبيه فيه ، وأن ابن زيدون إنما يعمل لصالح الدولة وتثبيت الأمر له (أى لابن جهور)

ولكن ماذا يجدى مثل هذا الدفاع وابن زيدون يتدفع بغير حذر ويتكلم بلا احتراس ، بل ويتصل بأعداء عميد الجماعة ليل نهار ويجتمع بهم حتى مطالع الفجر

وكان أعداء ابن زيدون مردة شياطين لا تهزمهم الحيـــلة ولا يصرفهم عدم تأثرا بن جهور بأقوالهم . . . فلما وجدوا أن هذه الوشايات لا تأتى بفائدة ، وأن أبا الوليد يفسد عليهم كل شىء ؛ أجمعوا أمرهم على شىء ، بأن اتفقوا على إيقاع ابن زيدون فى الشرك حتى لا يستطيع الخلاص بعد ذلك ويكون لهم ما يريدون

* * *

كان أحد أبناء الناصر لدين الله ويسمى (ابن المرتضى) ، يختفى بعيدا عن قرطبة خوف بطش ابن جهور به ، وكان الناس إذا أصابتهم شدة من ابن جهور تهامسوا باسم ابن المرتضى كمنقذ لهم مما هم فيه ، ولماذا لا يكون هو صاحب الأمر وهو من سلالة الخلفاء . . . وقد استطاع ابن المرتضى أن يتخذ أنصارا من أعداء ابن جهور ثم يدخل قرطبة خفية ويختفى عند أحد أتباعه وكان ابن زيدون من هؤلاء الأتباع وقد مال إليه عندما ألقى من إعراض ابن جهور عنه وتجهمه له بل وكان يعرف أين يختفى . علم بذلك ابن عبدوس وأنصاره المبغضون لابن زيدون فاتفقوا على أن يخبروا بذلك ابن جهور ولكن الدليل المادى يعوزهم ، وابن جهور لا يأخذ بأقوالهم ما دام أبو الوليد راضيا عن ابن زيدون

فاجتمعوا وتبادلوا الرأى . فقال أحدهم إن ابن زيدون يعرف أن ابن المرتضى يقيم بقرطبة ، بل وهو على صلة به ويلتقى به كل ليلة ، ثم اقترحوا أن يدعو أحدهم ابن زيدون إلى داره ، وأن يكون

هناك ابن جهور مستخفيا ليسمع ويرى . . .

ودعا الرجل ابن زيدون إلى ليلة فى داره ، وكان ابن جهور وأعوانه مستخفين متنكرين ، وبينما القـــوم يسمرون إذا جلبة وضوضاء فى خارج القاعة ، فنادى الرجل كبير خدمه وسأله فى استنكار عن هذا اللغط والضجيج ، فظهر التردد والخوف على وجه الخادم بادئ الأمر . ثم قال :

« لقد علمنا الآن يا سيدى من أحد أعوان صاحب الشرطة أن مولانا عميـد الجماعة قد ألقى القبض على سيدتى ولادة ، وهم الآن يسيمونها أشـد أنواع العذاب » فقال الرجل فى استنكار وصوته يكاد يخنقه الغضب :

« وأى ذنب جنته حتى يقبض عليها الشرطة ويعذبونها ؟ »

فقال الخادم :

« قيل يا سيدى إنهم وجدوا مولانا ابن المرتضى مختفيـا بقصرها »

فما أن سمع ابن زيدون هذا حتى ذهب صوابه وهب مذعورا والغضب يملأ نفسه ، وصاح بصوت مرتعش : هذا بهتان وزور . إن ولادة لاتخفى ابن المرتضى بقصرها وهى بريئة من هذا براءة الذئب من دم ابن يعقوب . وأنا الذى يعرف أين يختفى ابن المرتضى ، بل إنه فى دارى ، وها أنا ذاهب إلى ابن جهور لأخبره بذلك ليكف زبانيته عن أطهر امرأة فى قرطبة

وهم بمغادرة المكان ولكنه وجد أن ابن جهور يعترض طريقه كأنما انشقت عنه الأرض أو نزل من السماء ، وفى وجهه صرامة وفى عينيه لهب ، وصاح فى وجه ابن زيدون بصوت كأنه هزيم الرعد

لقد تحققت خيانتك أيها الخائن . ثم أمر صاحب شرطته بالقبض عليه وإيداعه السجن حتى يرى رأيه فيه ، وأمر آخر بتفتيش داره علّه يجد ابن المرتضى هناك ، ولكنه لم يجد له أثر . . .

وهكذا ذهب ابن زيدون إلى السجن لأنه لم يستطع أن يملك زمام نفسه فى مثل هذا الأمر الخطير ، ولم يقدر على كبح جماح كبريائه ، برغم عبقريته ونبوغه ، بل ذهب إلى السجن ضحية عبقريته ونبوغه وطموح نفسه . وقد قيل :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وقبله فر المتنبى من معية سيف الدولة بسبب قوله :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال خصوم أبى الطيب ، لسيف الدولة ، ما الذى أبقى لك بعد هذا ، فتغير عليه وأغضى حتى فر إلى مصر ، ثم لقى حتفه آخر الأمر ، لطموحه وكبريائه

وكثيرون هم أولئك الذين ذهبوا ضحية عبقريتهم ونبوغهم وكبر نفوسهم . ولعلنا نستطيع أن نقدم لقراء الرسالة صورا عن هؤلاء إن شاء الله .

(أسيوط) عبد الوجود عبد الحافظ

مصلحة البلديات

قلم التنظيم

تقبل العطاءات بمجلس السويس البلدى حتى ظهر يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٥١ عن عملية توريد ملابس لعمال النظافة

تطلب الشروط والمواصفات من المجلس على ورقة تمغة فئة الثلاثين مليما مقابل دفع ١٠٠ مليم خلاف أجرة البريد وكل عطاء غير مصحوب بتأمين ابتدائى قدره ٢٪ لا يلتفت إليه ٨٣٠٧